دار العلوم .. قبس من الأَزهر

د. بدوي طبانة

من الكلمات الأثيرة عند أبناء دار العلوم تلك الكلمة التي حفظوها عن الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده، وهي قوله: "إن باحثًا مدققًا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان، وتحيا في دار العلوم).

وقد أعظم من شأن هذه الكلمة، أو من شأن هذه الشهادة، منزلة صاحبها بين العلماء والحكماء، وما عرف به من صدق الرأي، وشجاعة القلب، وصحة الحكم، وسلامة التقدير.

ولنا أن نتصور ذلك العهد الذي قال فيه الأستاذ الإمام هذه الكلمة، وهو عهد فسدت فيه اللغة العربية، وهبطت إلى أدنى منازلها، فقد اختلطت فيه فصاحة العربية، بهجنة العامية، وبعجمة التركية، مع رطانات شتى من اللغات الأجنبية.

وذلك في وقت اشتدت فيه وطأة الاستعمار وضراوته في حرب اللغة العربية، ومحاولة القضاء عليها، إذ كان يعلم أنها في مقدمة مقومات هذه الأمة، وأبرز مظاهر وحدتها واتصال شعوبها. وامتحنت هذه الأمة بعدد من الذين ينتسبون إليها من الذين ظاهروا الاستعمار، ومالؤوا الأعداء فتنكروا لعروبتهم، وآثروا لغة الغريب، استعلاء على إخوانهم وبني جلدتهم، فأصبحوا يتشدقون بألفاظها ومصطلحاتها؛ إحساسًا بالضعة التي طبعوا

عليها، والنقص الذي ركب فيهم، ثم سنة المجتمعات المغلوبة في تملق المغلوب للغالب، ومحاكاة الضعيف للقوي في سلوكه، واصطناع آدابه ومظاهر حياته عن غير وعي أو بصيرة. حتى لقد أصبحت القومية في نظر هؤلاء تعصبًا، والوطنية دعوة إلى الانتكاس، والدعوة إلى التحرر والاستقلال تمردًا على الطاعة الواجبة لولي الأمر، من غير بحث في أحقيته لملك البلاد واسترقاق العباد. وعلى هذا القياس أصبح التمسك بحبال العقيدة أو بأهداب الفضيلة جمودًا، والحفاظ على اللغة والالتزام بأصولها، وسنن أصحابها في التعبير عن المقاصد والأغراض، رجعية وتخلقًا، أو تقليدًا وتكلفًا.

جامعة حرة للجميع:

فما هي (دار العلوم) التي حيت فيها لغة العرب، وكانت تموت في كل مكان كما قال الأستاذ الإمام، أو اللغة العربية التي أصبحت تحيا في كل مكان بفضل أبناء دار العلوم، تلك الكلية العريقة التي تربض في مكانها المعروف بحي (المنيرة) من أحياء مدينة القاهرة، وقد استقرت في هذا الموضع منذ سنة (١٩٠٠م) بعد رحلة استمرت ثلاثين عامًا بين حي (الجماميز) وحي (الناصرية) موضع المدرسة السنية الثانوية الآن. وكان البدء في إلقاء الدروس على طلبة دار العلوم في (سراي الجماميز) في اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٨هـ (٦ من مايو سنة ١٨٧١م).

وعلى ذلك تكون هذه الكلية قد قضت من حياتها المباركة أكثر من مئة عام، وهي تؤدي في صمت ووقار رسالتها الخالدة في خدمة اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، وتصل ما غبر من أمجاد هذه الأمة في ميادين المعرفة بما جد من أصول البحث ومناهج التفكير في دراسة

علوم العقيدة وعلوم اللسان.

وكان إنشاء دار العلوم في ذلك الوقت المبكر رمزًا إلى تطلع هذه الأمة إلى النهضة وإلى تجديد المعرفة في ربوع هذه البلاد، إذ كانت في مبدأ أمرها تمثل صورة الجامعة كما ارتسمت في ذهن المصلح الكبير علي مبارك، الذي كان مديرًا لديوان المدارس والأوقاف إذ ذاك، وكان من أول ما عناه سوء حالة الكتب في مساجد الأوقاف، وهي في عهدة الجهلة من خدمة تلك المساجد، وعن طريقهم تسللت نفائس المخطوطات إلى أوروبا إذ كانوا يبيعونها بأبخس الأثمان، ويضعون أثمانها في جيوبهم، بالإضافة إلى ما كانوا يبيعونه من أوراقها للباعة والبقالين ليلفوا فيها سلعهم.واستطاع علي مبارك أن ينقذ من هذه النفائس ما نجا من أيدى هؤلاء الجهلة وجشعهم، ويغرس بها نواة (المكتبة الخديوية) التي أصبحت فيما بعد (دار الكتب المصرية)، واتخذ لها مكانًا في سراي درب الجماميز المجاورة لمسجد مصطفى فاضل باشا، وأنشأ إلى جانبها أماكن للآلات والأدوات اللازمة لدراسة العلوم الطبيعية، ثم أنشأ بجوارهما ردهة مدرجة (انفيتاتر) ليحتفل فيها بالامتحانات التي كانت تعقد في كل سنة، ويحضرها كبار رجال الدولة تشجيعًا للمتعلمين.

ويعد المؤرخون دار الكتب ودار العلوم أختين أو توءمين، فقد اقترنت نشأة كل منهما، ويشير ذلك الاقتران إلى العلاقة الوثقى بين العلم والكتاب.

فقد عز على ذلك المصلح الكبير أن تخلو هذه الردهة المدرجة من طلاب العلم بعد أيام الامتحان، فأراد أن يعيد إلى مصر مفخرة من مفاخرها التي درست، وهي (دار الحكمة) أو (دار العلم) التي أنشأها

العزيز بالله الخليفة الفاطمي، وجعل منها مكتبة ومدرسة يقصد إليها طلاب العلم في هذه البلاد ليجدوا في استقبالهم نفائس الكتب وكبار الأساتذة.

ولم يبقَ أمام علي مبارك بعد إنشاء دار الكتب وإعداد المكان الصالح للدرس إلا أن يجمع الأساتذة والمدرسين، ويعد الطلبة الذين يتلقون عنهم العلوم والمعارف. وقد أعانه الله على ما أراد، وتحقق حلمه بإنشاء دار الكتب، و(دار العلوم) التي أطلق اسمها على ذلك المدرج منذ بدأ إلقاء المحاضرات به، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى يومنا، وإن كان هذا الاسم قد زايلها في بعض الفترات في الأوراق الرسمية ليصبح (قسم المعلمين العربي) مرة، و(مدرسة المعلمين الناصرية) مرة أخرى، ولكن الاسم الأصلي (دار العلوم) بقي على ألسنة الناس كما بقي في قلوبهم.

وقد كان الطلبة الذين هرعوا إلى مدرج (دار العلوم) في أول عهدها يمثلون مزاجًا عجيبًا من طلاب العلم، وهذا يدلنا على ما كان يحس به المصريون إذ ذاك من الظمأ إلى ارتياد مناهل العلم، والسعي إليه، واغتنام كل فرصة لتحصيله، ولم يقتصر ذلك على طبقة من الناس دون غيرها من الطبقات. وكانت دار العلوم إذ ذاك أشبه بالجامعة الحرة التي تفتح أبوابها لكل طارق، فلم يكن في قانون هذه الكلية ما يحدد نوع الطالب الذي يتلقى العلم فيها أو سنه أو نوع ثقافته أو درجة هذه الثقافة، ولم يكن في قانونها ما يحجب أحدًا من أبناء الأمة عن شهود تلك المحاضرات، والإفادة مما يلقيه الأساتذة في شتى فروع الثقافة.

وقد يأخذك العجب إذا عرفت أنه كان من شهود تلك المحاضرات طائفة من أكابر العلماء، وكبار رجال المعارف أو (ديوان المدارس)

والقائمين بأمر التعليم، وكبار موظفي الحكومة، وفي مقدمتهم (علي مبارك باشا). كما كان منهم طلبة من الأزهر الشريف، ومن الفرق العالية من مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ومدرسة المساحة ومدرسة الإدارة (الحقوق). وقد جمع بينهم حب العلم والتنافس في طلبه والاستزادة منه، يجلسون جنبًا إلى جنب، وقد أزال طلب العلم ما بينهم من فوارق المناصب والجاه والثراء.

وكذلك اختلفت ثقافات الأساتذة كما اختلفت موضوعات محاضراتهم اختلافًا بينا، إذ كان فيها محاضرات في الموضوعات اللغوية والأدبية يلقيها كبار علماء الأزهر، كما كان فيها محاضرات في أحدث العلوم والفنون يلقيها علماء أجانب أو علماء مصريون ثقفوا هذه العلوم والفنون في أوروبا. وقد تبع ذلك اختلاف لغات الحاضرين بين العربية الفصحى وما يقاربها، واللغة الفرنسية مع ترجمة ما يلقى بها إلى اللغة العربية حتى يستطيع جمهور الطلاب الإفادة مما يسمعون.

وكان من أولئك الأساتذة الكبار:

الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي الذي كان يحاضر في التفسير والحديث.

والشيخ عبد الرحمن البحراوي الذي كان يحاضر في فقه أبي حنيفة النعمان.

والشيخ حسين المرصفي الذي كان يحاضر في علوم الأدب.

وكان من المحاضرين الأجانب:

هنري بروكس باشا ناظر مدرسة اللسان القديم، وكان يحاضر في

التاريخ العام.

وفيدال باشا ناظر مدرسة الإدارة والألسن، وكان يحاضر في فن السكك الحديدية.

وفرانس باشا المدرس بمدرسة المهندسخانة، وكان يحاضر في فن الأبنية أو العمارة.

وجيجون بك ناظر مدرسة العمليات، وكان يحاضر في فن الآلات. ومسيو بكتيت، وكان يحاضر في علوم الطبيعيات مع شرح الآلات التي استحضرها من أوروبا. وكذلك كانت هناك محاضرات باللغة العربية: في علم الفلك يلقيها إسماعيل الفلكي باشا ناظر مدرسة المهندسخانة. وفي علم الطبيعيات مع التجارب يلقيها منصور أحمد أفندي المدرس بالمهندسخانة.

وفي علم النبات مع استحضار النماذج يلقيها أحمد ندى بك مدرس النبات بالمدرسة الحربية ومدرسة الطب.

أهداف العلم ونظام التعليم:

ذلك هو النظام الفريد الذي ابتدأت به دار العلوم حياتها العلمية، ووجودها التاريخي. ويبدو أن علي باشا مبارك رأى أن هذا اللون من التثقيف العام للكبار قد يكون نافلة من العمل، قد يكون أوجب منها بالعناية وبذل الجهود معالجة الفقر الذي تعانيه الأمة في تربية أبنائها وتعليمهم، وأحس بحاجة هؤلاء الأبناء إلى المهرة المختصين من المربين والمعلمين الذين ينشرون أنوار المعرفة في ربوع البلاد، ويتعهدون الجيل الناشئ بالتربية والتعليم والتثقيف. ورأى أن البدء بهذه الجهود ينبغي أن

يبدأ من حيث يكون البدء، أي من الأدنى إلى الأعلى.

ولذلك رأى علي باشا مبارك أن يغير في هدفه، وأن يغير كذلك في خطته، فقد قرر أن تتحول قاعة المحاضرات إلى كلية لإعداد المعلمين الصالحين، فكتب على الفور إلى شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك (الشيخ مُحَمَّد العباسي المهدي)، يطلب إليه اختيار بعض العلماء الأعلام للتدريس بدار العلوم على حساب ديوان الأوقاف، وانتخاب عشرة من نجباء الطلبة بالأزهر لحضور الدروس العربية والشرعية بدار العلوم، يربط لكل طالب منهم (خمسة وعشرون قرشًا في كل شهر)، إعانة لهم من ديوان الأوقاف، ولهم الحق في أن يحضروا باختيارهم الدروس الأخرى، كما جاء في كتاب علي مبارك إلى الشيخ العباسي المهدي، ونص كلامه:

"وأما الطلبة المراد تعيينهم كما سبق تحريره لسعادتكم، فبما أن الذي يطلب منهم هو حضور دروس العلوم العربية والشرعية، وهذا مقدار ساعة ونصف في كل يوم، والحالة هذه لا يكون في ذلك تعطيل عن دروسهم بالأزهر ولا معايشهم. وإنما إذا أرادوا من تلقاء أنفسهم حضور دروس أخرى بهذا الطرف (أي بدار العلوم) كدرس الفلك أو الطبيعة مثلًا فيكون ذلك باختيارهم ورغبتهم. كما أن كل سائر آحاد الناس، من أراد حضور أي درس من الدروس العامة التي صار الإعلان عنها في الوقائع المصرية فلا يمنع. ومبلغ الخمسة والعشرين قرشًا الذي تقرر ترتيبه لكل من العشرة المطلوبين ليس هو من قبيل الماهية، وإنما المراد منه مجرد الإعانة فقط. لا سيما والقصد من تعيين العشرة المذكورين هو أنه عند لزوم (خوجات) في بعض المكاتب ينتخب منهم عند الاقتضاء، وبوقت ذلك كل من صار

انتخابه منهم تقرر له الماهية اللازمة".

وظل ديوان الأوقاف ينفق على دار العلوم وطلبتها وأساتذتها وخدمتها من ميزانية (المكتبة الخديوية) حتى شهر مارس سنة ١٨٨١م. وفيه ضمت دار العلوم على ديوان المدارس (وزارة المعارف) ليقوم بدبير أمورها، ويتولى الإنفاق عليها. وكان عدد المدرسين بها إذ ذاك ثمانية تتراوح مرتباتهم بين ثلاثة جنيهات وخمسة عشر جنيهًا، وكان ناظرها إذ ذاك يتقاضى مرتبًا شهريًا قدره خمسة وعشرون جنيهًا. أما طلبتها فقد بلغ عددهم في تلك السنة ٣٢ طالبًا يتقاضى كل واحد منهم جنيهًا واحدًا في الشهر.

وكان علي مبارك قد عني عناية فائقة بتجديد المكاتب الأهلية، التي كانت تقوم بتربية النشء في مدن مصر وقرأها، وعمل على تنظيمها وتعميمها، ورأى أن ذلك يحتاج بالضرورة إلى كثير من مهرة المعلمين الذين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الأتم، وقد لاحظ أن المشتغلين بوظيفة التعليم في اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية لذلك. ولذلك تابع جهوده المخلصة في دعم دار العلوم والعمل على استقلالها، فوضع الأنظمة والقوانين التي حدد بها نظام الكلية، وأهداف التعليم فيها، ونظام القبول بها، فقرر:

١- أن يكون عدد الذين يقبلون بهذه الكلية خمسين طالبًا.
٢- ألا تقل سن الطالب عن العشرين سنة، ولا تتجاوز الثلاثين.
٣- يتم اختيار الطلبة المقبولين عن طريق الامتحان التحريري والشفهي.
٤- يجرى للناجحين في الامتحان (اختبار شخصي) للوثوق من

أهليتهم ولياقتهم.

٥- يلزم الطلبة المقبولون بحضور جميع الدروس والمحاضرات المقررة. وكانوا قبل ذلك يحضرون ساعة ونصف الساعة في كل يوم، وكانت لهم الحرية في حضور دروس المواد الحديثة بإرادتهم.

٦- يدرس لهم في (دار العلوم) الملحقة (بالكتبخانة العامرة) ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم، وحسن التربية على الوجه المطلوب، والأسلوب المرغوب.

٧- يربط لكل طالب مدة إقامته (تحت التعليم) مئة قرش شهريًا، من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الأوقاف.

وعند تعيين أحد من الخريجين في وظيفة بمكتب من المكاتب (بعد تمام تعليمه، وظهور براعته في الامتحان) يربط له بدل المئة قرش المذكورة على الجهة التي يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التي ينتخب لها. ورأى علي مبارك أنه بهذه الوسيلة يمكن الحصول على ما فيه الكفاية من المعلمين للغة العربية واللغة التركية، ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم.

وكان رحمه الله ينظر إلى المدرسين الذين يتولون تربية النشء وتهذيبه وتعليمه في زمنه، فيراهم فريقين: فريق من الأزهر الشريف يعلمون لغة البلاد وأمور الدين الحنيف، ومعظم هؤلاء يرون أن كل علم ليس في الكتب التي تلقوها في الأزهر الشريف ضلال وكفر، وأن الاشتغال به اشتغال بما لا يجدي، ويرون أن شركاءهم في التدريس الذين يدرسون الجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك وغير ذلك من العلوم الكونية، هم

ملاحدة كفار.

أما الفريق الآخر، وهم إخوانهم الذين زاولوا دراسة العلوم الكونية، وعرفوا صحة نظرياتها بالبرهان القاطع والقياس المنطقي، فيرون في معلمي اللغة العربية والدين جهلًا فاضحًا، وضلالًا واضحًا، قد يدعو إلى الشك في الدين الذي يعتمدون عليه، ويدعون الاضطلاع به.

وقد أدرك علي مبارك تلك الهوة العميقة، وذلك البون الشاسع بين الفريقين، وأراد أن يتلافى ذلك الخلل، وأن يقرب مسافة الخلف بينهما، فعمل على تأسيس (دار العلوم) ليتلقى فيها طلبتها العلوم الكونية التي لا تتيسر لهم دراستها بالأزهر الشريف؛ حتى لا تكون غريبة عنهم، ويزول اعتقادهم بكفر العالمين بها، ويزدادوا نورًا على نور، وينزل الفريق الآخر عن اعتقاده الجهل فيهم.

هذا إلى ما يستفيده الأولون من أساليب دراسة العلوم المختلفة وطرق إلقائها وتلقيها؛ حتى يكون لهم ذلك نبراسًا يضيء لهم سبيل التعليم، وهاديًا يهديهم طريق الصواب في كيفية إفادتهم تلاميذهم المواد التي يزاولونها. وقد تم له بدار العلوم ما أراد(٩).

أعلام في تاريخنا الجامعي:

هذه كلمات عن النشأة الأولى لدار العلوم، يتضح منها كيف كانت رسالتها تثقيفية عامة، يحتشد لها الراغبون في ألوان من الثقافات العالية من

(٩) من كلمة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار في العيد الخمسيني لدار العلوم سنة ١٩٢٧م. وانظر تقويم دار العلوم للمرحوم الأستاذ مُحَمَّد عبد الجواد، ص١٨.

كل الطبقات؛ لينهلوا من علم أساتذتها الكبار. وكيف تحولت إلى كلية نظامية تحرص على مستوى أساتذتها ومستوى طلبتها، وتحدد ما يتلقون من الدروس وما يلقى عليهم من المحاضرات، وتحدد مستقبلهم ودورهم في النهوض بالوطن، وهو القيام بتربية أبناء البلاد وتعليمهم.

ومن الطبيعي أن مهمة الخريجين في دار العلوم لم تقتصر على تعليم تلاميذ المرحلة الأولى، التي ظهرت الحاجة الملحة إليها أولًا، وإنما صار خريجوها يعدون أجيال الشباب في المرحلة الثانوية وفي دور المعلمين والمعلمات، وما في هذا المستوى من مدارس المرحلة المتوسطة، ثم كان منهم خيرة الأساتذة في المعاهد العليا والجامعات، منذ تأسست الجامعة المصرية الأولى سنة ١٩٠٨م، ومنذ أصبحت جامعة رسمية سنة ١٩٢٥م، ومنذ تعددت الجامعات المصرية فيما بعد، ولا يزالون يؤدون واجبهم إلى الآن، فقد كانوا أساتذة علوم العربية وآدابها في كليات الآداب، وأساتذة الشريعة الإسلامية في كليات الحقوق، وشاركوا في إرساء دعائم الحياة الجامعية في هذه البلاد محاضرة وتدريسًا وتأليفًا، وتخرجت على أيديهم أجيال من العلماء المختصين يعترفون بفضل هؤلاء الأساتذة، ومدى ما نهلوا من أفضالهم، وما أفادوا من علمهم. ومن هؤلاء الأساتذة:

محمد المهدي، ومحمد الخضري، ومحمد زيد الأبياني، وطنطاوي جوهري، وعبد الوهاب النجار، وأحمد ضيف، وعلي العناني، وأحمد الإسكندري، وحفني ناصف، وأحمد إبراهيم، وأحمد أبو الفتح، وأحمد الشايب، ومصطفى السقا، وعبد الوهاب حمودة، وعلي عبد الواحد، ومهدي علام، وإبراهيم سلامة، وأبو العلا عفيفي، ومحمد خلف الله، وطه أحمد إبراهيم،

وسلطان محمد، وإبراهيم مصطفى، وأحمد عبده خير الدين. وكثير غيرهم.

ومن الذين لم تقتصر خدماتهم التعليمية على جامعات مصر وحدها، وإنما تجاوزتها إلى جامعات أوروبا كثيرون، وفي مقدمتهم الأساتذة الأجلاء:

عبد الرحيم أحمد: الذي كان أستاذًا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس.

حسن توفيق العدل: الذي كان أستاذًا بالمدرسة الشرقية في برلين، ثم أستاذًا في جامعة كمبردج.

عبد العزيز جاويش: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

محمد حسنين الغمراوي: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

محمد علي مصطفي: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

محمد أحمد جاد المولى: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

أبو العلا عفيفي: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

منصور سليمان: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

أحمد عبده خير الدين: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

محمد محمود جمعة: الذي كان أستاذًا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن.

مهدي علام: الذي كان أستاذًا بجامعة مانشستر.

أما أبناء دار العلوم الذين شاركوا في إرساء دعائم التعليم الجامعي في البلاد العربية، فهم أكثر من أن يحصوا، بالإضافة إلى عدد كبير يشاركون في النهضة العلمية في تلك البلاد، مدرسين ومديرين وموجهين منذ أكثر من أربعين سنة حتى الآن في مراحل التعليم العام.

ويذكر التاريخ الجامعي المعاصر أن ثلاثة من أبناء دار العلوم كانوا

يشغلون مناصب العمادة في كليات الآداب الثلاثة بالجامعات المصرية في وقت واحد، فكان المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة عميدًا لآداب القاهرة، والدكتور مهدي علام عميدًا لآداب عين شمس، والأستاذ مُحَمَّد خلف الله عميدًا لآداب الإسكندرية، وفي الوقت نفسه كان الأستاذ إبراهيم اللبان عميدًا لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

وإذا كنا قد أشرنا إلى شيء مما قام به أبناء دار العلوم، في ميدان التعليم العام والتعليم الجامعي في مصر وفي غيرها من البلاد العربية والبلاد الأوروبية، فلن تفوتنا الإشارة إلى شيء من جهودهم في الكتابة والتأليف العلمي والأدبي، وقد فاقت ما كان مقدرًا لها، بما جددوا وابتكروا وبما ترجموا من آثار الفكر الإنساني في اللغة والأدب، وفي المنطق والفلسفة، وفي التاريخ وعلم الاجتماع، وفي التربية وعلم النفس، وبما حققوا من تراث العرب، وأحيوا من دارسه. فأعادوا العربية إلى عصورها الذهبية، وأثروا المكتبة العربية بالدراسات الأصيلة والبحوث النافعة العميقة، واستطاعوا أن يرجعوا إلى متون اللغة ليتخيروا منها لكتاباتهم، وما يلقنونه لتلاميذهم.

فنهضوا بأساليب التعبير، وقووا في تلاميذهم ملكة الإنشاء والقدرة على التعبير، وعكفوا على أصول النحو والصرف فحلوا مشكلاتها، وأجلوا غوامضها، وصاغوها صياغة جديدة قربتها إلى أفهام التلاميذ، وتدرجوا بها مع النمو العقلي لتلاميذهم، وجارَوا بها تنقلهم في مراحل التعليم المختلفة، وعمدوا إلى كتب البلاغة فاستخرجوا زبدتها وقربوها إلى الأذواق، بما يسروا من غامضها، وخففوا من مصطلحاته، وحببوا إلى تلاميذهم قراءة الأدب وتذوقه، واستخلاص ما حوى من الخصائص الفنية

والجمالية، وأعانوهم على نقده وتقويمه.

تجديد منهج الدرس الأدبي:

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر صنيع رجل من خير من خرجت دار العلوم، ومن أبر من حملوا رسالتها في خدمة اللغة والأدب في صمت الحكماء، وفي تواضع العلماء، وفي بعد عن الجلبة والدعوى التي يصطنعها الأدعياء في هذا الزمان.

ولعل أكثر المعاصرين لا يعرفون أن دراسة التاريخ الأدبي للأمة العربية، على هذا النحو الذي يدرسونه به في هذا الزمان في المدارس والجامعات، مدين بوضعه وابتكاره لرجل من أبناء دار العلوم الأوفياء، وهو المرحوم (حسن توفيق العدل). فقد كان درس الأدب يقوم على المنهج التقليدي المألوف في الآثار القديمة كالذي نجده في كتاب (الكامل) لأبي العباس المبرد، وهو منهج يقوم على الاستطراد في رواية النصوص الأدبية، وشرح غوامضها، وتوضيح ما حوت من الإشارات التاريخية، والفوائد اللغوية، والقواعد النحوية، والنكت البلاغية. وكان في ذلك ما فيه من المشقة على الدارسين الذين يعز على أكثرهم تخليص الحقائق وتحديدها، ويصعب عليهم تجميع عناصر موضوعاتها. وعلى هذا النحو أو ما يقرب منه ألف الشيخ حمزة فتح الله كتابه (المواهب الفتحية) وألف الشيخ حسين المرصفي كتابه (الوسيلة الأدبية).

ولكن المرحوم حسن توفيق العدل نهج نهجًا جديدًا هو النهج الذي لا يزال يدرس الأدب على أساسه، وذلك أنه عمد إلى الحياة الأدبية عند العرب فقسمها إلى فترات أو عصور زمنية حددها بكبريات الأحداث في

تاريخ هذه الأمة، وجعلها خمسة عصور تبتدئ بالعصر الجاهلي، وتنتهي بعصر النهضة الحديثة، ثم درس الحياة الأدبية في كل عصر، مقدمًا لها بدراسة العوامل المؤثرة في حياة الأدب، ومعرفًا بأشهر أعلامه، وعارضًا نماذج من أدبهم المنظوم أو المنثور.

وتتابعت الدراسات الأدبية على هذا النحو وكان ذلك ثمرة من ثمرات عكوفه على الآداب الأوروبية ومناهج دراستها في الفترة التي قضاها في أوروبا.

تسمية المسميات الحديثة:

ومما يتصل بجهود أبناء دار العلوم ونشاطهم في خدمة اللغة العربية والنهوض بها (نادي دار العلوم) الذي أنشاؤه ليكون ملتقى لهم، ومعرضًا لآرائهم الحرة في موضوعات تتصل برسالتهم، وقد لا تتسع لها حجرات الدروس وقاعات المحاضرات. وقد افتتح ذلك النادي في شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧م، وكان أول رئيس له هو المرحوم حفني ناصف، وكان إذ ذاك قاضيًا بمحكمة الأزبكية، وكان ذلك النادي أشبه بمجمع لغوي. وقد قال فيه جرجي زيدان: "كانت تلقى فيه الخطب، وأكثر بحوثه في اللغة ومصطلحاتها. وقد وضع أعضاؤه بضعة آلاف لفظة اصطلاحية جديدة نشر بعضها في مجلة كانت تصدر باسم النادي".

وقد عرض رجال ذلك النادي في جملة ما عرضوا له من الموضوعات ذات الخطر في حياة اللغة العربية لموضوع (التعريب) وقد دارت حول هذا الموضوع مناقشات علمية رائعة تدل على الوعي الصحيح، والتقدير لظروف اللغة، ووسائل نمائها، وقدرتها على مواجهة مطالب الحياة المتجددة. فإذا عدونا خدمة اللغة والأدب، وخدمة التربية والتعليم التي

أجاد فيها أبناء دار العلوم وأفادوا، وكان لهم فيها القدح المعلى، حتى أصبحوا علمًا عليها، وإذا عدونا كذلك من خرجت دار العلوم من فحول الشعراء والخطباء وأصحاب الأقلام، ومن رجال الوطنية والإصلاح الاجتماعي ممن لا تتسع لهم هذه السطور، إذا عدونا هؤلاء وهؤلاء ألفينا عددًا من خريجيها يبرعون في الثقافة القانونية، ويصلون بجدهم وإخلاصهم وكفايتهم إلى أرفع مناصب القضاء الأهلي والشرعي، ومنهم المرحومون حسن جلال المصري (باشا) الذي كان مستشارًا بمحكمة الاستئناف، ومُحَمَّد عبد الفتاح (بك) الذي عين وكيلًا للنيابة ثم قاضيًا، ومُحَمَّد صالح (باشا) الذي رأس كثيرًا من المحاكم الأهلية ثم عين مستشارًا بمحكمة الاستئناف، وعبد الرحمن إبراهيم (باشا) الذي كان وكيلًا لمحكمة النقض والإبرام، وحفني ناصف (بك)، وعبد الرحيم أحمد (بك)، ومصطفى الخولي (بك)، وغيرهم، بالإضافة إلى أبنائها الذين شغلوا مناصب القضاء الشرعي، وزاولوا صناعة المحاماة، وفي طليعتهم النقيبان مُحَمَّد عز العرب (بك)، وعبد الرازق القاضي (بك).

هذه دار العلوم التي أسهمت بنصيب واضح في بناء نهضة مصر ولغتها وأدبها، وتجاوزت رسالتها هذه الحدود إلى تلك الآفاق البعيدة مع صعوبة المسلك ووعورة الطريق. فقد قاست هذه الكلية طوال حياتها ألوانًا من الصراع العجيب، وكانت لا تخرج ظافرة من معركة إلا ابتلتها الأقدار بمعركة أخرى. وقد كتب الله لها البقاء والنصر على جميع القوى التي تصدت لها، فكانت بذلك آية الآيات في مجالدة الزمن ومقارعة الخطوب، ومن المعارك الرهيبة التي خاضتها دار العلوم:

_ معركة مع الرجعية والتخلف، فقد دعا أنصارهما إلى مناهضة هذه الكلية، وهي لم تزل تستقبل حياتها العلمية بدعوى أنها تعلم طلابها علوم الطبيعة والحياة وسائر العلوم الحديثة، وكان تلقي هذه العلوم إذ ذاك كبيرة من الكبائر؛ إذ كانوا يعدون ذلك خروجًا على الدين، وضربًا من الزندقة والإلحاد. واضطر أساتذتها وطلابها للدفاع عن كيانهم بتبصير الناس بمزايا هذه العلوم التي تعين على الإيمان، والتعرف على آيات الله.

_ معركة مع الاستعمار وأعوانه، الذين نظروا إلى هذه الكلية نظرة توجس وحذر، باعتبارها حصنًا للعربية، ومنارًا للقومية، ولأن أبناءها ينتشرون في طول البلاد وعرضها، وينشرون العلم والنور بين أبناء الأمة في جد وصدق. ومن هنا بدأ التضييق على خريجيها، فحيل بينهم وبين المناصب الرفيعة في وزارة المعارف، وسن (دنلوب) المستشار الإنجليزي والمصرف الحقيقي لشؤون التربية والتعليم سنة الفصل بين أبناء دار العلوم ونظرائهم من خريجي المعاهد الأخرى في المناصب والدرجات، فشبت بذلك نار الفتنة بين أبناء البلد الواحد الذين يتعاونون على أداء خدمة وطنية واحدة.

ولكن هذه الخطوب كانت من أهم العوامل في تطوير دار العلوم وتجديد نشاطها العلمي على مر الزمان، ولا سلاح لها إلا العمل المؤمن الجاد.

وبعد، فهذه كلية دار العلوم التي صمدت في وجه الخطوب، وكتب الله لها الحياة والبقاء، كما تعهد رسالتها بالبركة والنماء حتى أصبحت إحدى مفاخر جامعة القاهرة، وواسطة العقد بين كلياتها العاملة، تتابع دورها في أداء رسالتها الخالدة.

وقد كانت ولا تزال جديرة بتحية أمير الشعراء أحمد شوقي لها في عيد

من أعيادها الماضية سنة ١٩٢٧، بقصيدة من قصائده الجياد منها قوله مشيدًا بجهودها العربية والإسلامية، وبآثارها في الحفاظ على اللغة العربية الفصحى:

وجمعت السعادتين فباتت فيك دنيا الصلاح للدين خدنا
لو تسترت كنت كالكعبة الغراء ذيلًا من الجلال وردنا
إن تكن للثواب والبر دارًا أنت للحق والمراشد مغنى
يا عكاظًا حوى الشباب فصاحًا قرشيين في المجامع لسنا
فتية محسنون لم يخلفوا العلم رجاء ولا المعلم ظنا
كلما سار للكهولة شعري أنشدوه فعاد أمرد لدنا